فكرة وطريقة المصحف الموضوعي المفصل في الفهم والتدبر والحفظ

لما كان القرآن الكريم كما وصفه الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]، فقد كان الاعتماد الأساسي في هذه الطريقة، هو محاولة الوقوف على هذا التفصيل الذي أشارت إليه الآية، ثم إبرازه من خلال وضع خطوط أفقية للدلالة عليه، بحيث تصبح الآيات على شكل مجموعات أو فقرات متسلسلة، ثم محاولة بيان موضوع كل فقرة من هذه الفقرات، وبيان الروابط الموضوعية والمناسبات التي تربط بينها، والتي ينتقل السياق عبرها من فقرة إلى أخرى.

ولقد وردت في القرآن الكريم آيات عديدة تؤيد أن تفصيل سوره ـ بحيث تصبح على شكل فقرات متسلسلة ـ هو من الأمور التي تساعد على فهمه وتدبره وحفظه، منها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان: ٣٢]. ولقد بين المفسرون ذلك، ومنهم ابن كثير حيث قال: «إن الكتب المتقدمة كانت تنزل جملة واحدة، والقرآن نزل منجماً مفرقاً مفصّلاً، آيات بعد آيات، وأحكاماً بعد أحكام، وسوراً بعد سُوَر. وهذا أشد وأبلغ، وأشد اعتناءً بمن أنزل عليه». وقال أيضاً: «يقول تعالى مخبراً عن كثرة اعتراض الكفار وتعنتهم، وكلامهم فيما لا يعنيهم، حيث قالوا: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ أي: هلا أنزل عليه هذا الكتاب الذي أوحي إليه جملة واحدة، كما نزلت الكتب قبله، كالتوراة والإنجيل والزبور، وغيرها من الكتب الإلهية؟ فأجابهم الله عن ذلك بأنه إنما أنزل منجماً في ثلاث وعشرين سنة، بحسب الوقائع والحوادث، وما يحتاج إليه من الأحكام، لتثبيت قلوب المؤمنين به، كما قال: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾»، وفي تفسير التحرير والتنوير: «إن نزوله منجّماً أعون لحفّاظه على فهمه وتدبره». وفي حكمة التنجيم وجوه كثيرة لا يعقلها إلا الراسخون.

وفي تفسير الجلالين: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا﴾ هلا ﴿نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ كالتوراة والإنجيل والزبور. قال تعالى: نزّلناه ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي متفرّقاً ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ نقوّي قلبك ﴿وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ أي أتينا به شيئاً بعد شيء بتمهّل وتؤدة، لتيسير فهمه وحفظه وتثبيته في القلوب.

وبالإضافة إلى الأدلة القرآنية أعلاه، والتي تؤيد فكرة التفصيل الموضوعي للآيات، لتيسير فهمه وتدبره وبالتالي حفظه؛ أُذَكِّرُ هنا بأن أصحاب النبي ﷺ كانوا يتعلمون القرآن بما يشبه هذه الطريقة، أي فقرة بعد فقرة. فقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «تعلموا القرآن خمساً خمساً، فإن جبريل عليه السلام نزل بالقرآن على النبي ﷺ خمساً خمساً» وهو ما روي عن علي ـ كرم الله وجهه ـ بلفظ آخر. وقال بعض أهل العلم: من تعلم خمساً خمساً لم ينسه.

والآن. ولكي تكون الفكرة واضحة لديك، انظر في بداية سورة البقرة ولاحظ ما يلي:

تبدأ الآيتان (١، ٢) بالحديث عن كتاب الله المعجز الذي لا ريب فيه، وتذكر من صفاته أنه هدى للمتقين. لذا تم تحديدها كمجموعة أو فقرة، وكتب بجوارها رقم ٢ أي أن هذه الفقرة تتكون من آيتين ـ مع عبارة مجملة توضح موضوع هاتين الآيتين. كالشكل الآتي:

﴿الٓمٓ ۝١﴾ ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢﴾	٢ تبدأ السورة بهذه الأحرف الثلاثة المقطعة: «ألف. لام. ميم»... (ومثل هذه الأحرف يجيء في مقدمة بعض السور القرآنية. وقد وردت في تفسيرها وجوه كثيرة، أقربها أنها إشارة للتنبيه إلى أن هذا الكتاب مؤلف من جنس هذه الأحرف، وهي في متناول المخاطبين به من العرب. ولكنه ـ مع هذا ـ هو ذلك الكتاب المعجز، الذي لا يملكون أن يصوغوا من تلك الحروف مثله. وهذا بحد ذاته يدل على علوّ مصدره). ثم يذكر من صفات هذا الكتاب ـ الذي يتألف من مثل هذه الأحرف ـ أنه لا ريب فيه هدى للمتقين.

وعند ذكر المتقين، يأخذ السياق ببيان الصفات الأساسية لهذه الطائفة من الناس، وذلك في الآيات (٣، ٤، ٥) ـ وهم الصنف الأول إزاء الإيمان بالكتاب ـ وأيضاً تم تحديدها كمجموعة أو فقرة، وكتب بجوارها رقم ٣ أي أن هذه الفقرة تتكون من ثلاث آيات ـ مع عبارة مجملة توضح موضوعها كذلك.. كالشكل الآتي:

﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾	٣ وعند ذكر «المتقين» يبين الله تعالى صفاتهم الأساسية التي جعلتهم يستحقون هذا الثناء الكريم. وفي مقدمتها الإيمان بالغيب، ويقرر في ختامها نتيجة ذلك، وهو نجاحهم وفلاحهم.. وهؤلاء هم الصنف الأول ـ إزاء الإيمان بالكتاب.

ثم بعد ذلك تأتي الآيتان (٦، ٧). وبما أنهما تتكلمان عن الكافرين؛ فقد تم تحديدهما كمجموعة أو كفقرة، وكتب بجوارها رقم ٢ مع عبارة لها كذلك . . كالشكل الآتي:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٧﴾	٢ ثم ينتقل إلى الصنف الثاني وهم «الكافرون» الذين لا يؤمنون بالكتاب! فيبين أن هؤلاء قد بلغ من أمرهم في الغواية والضلال، ألا يجدي فيهم الإنذار والتبشير، وألا تؤثر فيهم العظة والتذكير. ومن ثم فقد جرت سنة الله تعالى فيهم أن يُختَم على قلوبهم وعلى سمعهم، ويجعل على أبصارهم غشاوة؛ لأنهم عطَّلوا مداركهم هذه ولم ينتفعوا بها، وتوعدهم بعذاب عظيم.

ثم بعد ذلك تأتي (١٣) آية تتكلم عن المنافقين، ولأنها فقرة كبيرة نسبياً، فقد تم تفصيلها إلى فقرات جزئية، وكتب أمام هذه الفقرات الجزئية أرقام تمثل أعداد آياتها، وعبارات ملخصة لموضوعاتها، لتسهيل حفظها. وهذا طبعاً بالإضافة إلى الرقم والعبارة العامة، وهي: ١٣ آية تتكلم عن المنافقين. وكل ذلك من أجل ترتيبها منطقياً في الذاكرة؛ الأمر الذي يُسَهِّل فهمها وتدبرها وحفظها.

والآن لو نظرت نظرة عامة، فإنك سوف ترى أن الله عز وجل قد ذكر كتابه الذي لا ريب فيه، ثم صنف الناس إزاء إيمانهم به إلى ثلاثة أصناف. فإما أن يكونوا ضمن الصنف الأول وهم (المتقون)، أو الثاني وهم (الكافرون)، أو الثالث وهم (المنافقون).

ومن ثم تجيء الآيتان (٢١، ٢٢) وفيهما يوجه ـ سبحانه وتعالى ـ دعوة إلى الناس ـ الناس كافة ـ إلى أن يختاروا الصنف الأول، ويكونوا من المتقين، الذين يخلصون العبودية لله الواحد، والخالق الواحد، والرازق الواحد، بلا شركاء ولا أنداد.

ثم تأتي الآيتان (٢٣، ٢٤) وفيهما تحدٍّ للمرتابين في تنزيل هذا الكتاب ووعيد للكافرين.

ثم بعد وعيد الكافرين تأتي الآية (٢٥) وهي تحمل البشرى للمؤمنين.

وهكذا تجد أن جميع آيات هذا المصحف قد تم تفصيلها إلى مجموعات أو فقرات أو نجوم أو طوائف صغيرة، وفي بعض الأحيان تجد أن عدداً من هذه الفقرات الصغيرة تكون ضمن فقرات أو مجموعات أكبر، كما في الآيات الثلاثة عشرة عن المنافقين التي مر ذكرها، وذلك لتسهيل أخذها بنظرة شمولية، واحتوائها في الذاكرة.

ابدأ الآن ـ أيها القارىء الكريم ـ بالقراءة في هذا المصحف الموضوعي المفصل، وتمعَّن جيداً في الآيات، وفي العبارات المقابلة لها، وحاول أن تتصور أن هذه العبارات هي بمثابة مرشد، يسير بمحاذاة النص القرآني، وكأنه يشير إليه ليبين موضوعه ويشرح سياقه، ولا ينفك عنه، من مبدأ السورة وحتى منتهاها. لذا حاول أن تستفيد من هذا المرشد أقصى استفادة، من أجل أن تفهم كتاب الله تعالى وتتدبره، وكذلك من أجل أن تحفظه إذا ما نويت ذلك. وإذا نويت حقاً فتوكل على الله، وليكن حفظك حسب الفقرات (فقرة بعد فقرة) مع حفظ عدد آيات كل فقرة، وفهم العبارات الملخصة لموضوعاتها، ولو بمعناها الإجمالي، فإنها ستكون مرشداً لك في استحضار الآيات التي ستحفظها، متى ما أردت مراجعتها. واعلم:

١ـ إن جميع الخطوط والأرقام والتظليلات؛ وضعت لغرض بيان التفصيل الموضوعي للمصحف، من أجل تسهيل فهمه وتدبره وحفظه، وهي لم تغير من المصحف شيئاً، ولا ينبغي أن تحمل على هذا المحمل، فقد تم انتخاب مواقعها انتخاباً افتراضياً (جاء من خلال مراجعة بعض التفاسير والكتب المعتمدة، وكذلك من خلال التجربة العملية في الحفظ) لذلك فهي قابلة للتعديل إذا تبين فيها ما هو أصح.

٢ـ :

أ ـ إن العبارات الجانبية المقابلة للفقرات: هي عبارات توضيحية للمعنى الجملي أو (لموضوع أو مغزى أو فحوى أو مرمى أو مقصد) الآيات المقابلة لها، وتوضيحية كذلك لمناسبات الربط بين الفقرات المتتالية في السورة الواحدة، وهي ـ على الأغلب ـ مقتبسة إما بالنص أو بالمثل من التفاسير والكتب التالية: تفسير ابن عباس، تفسير الطبري، تفسير القرطبي، تفسير البغوي، تفسير ابن كثير، تفسير الرازي، تفسير فتح القدير، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تفسير التحرير والتنوير، تفسير المنار، تفسير المراغي، في ظلال القرآن، تفسير الشعراوي، صفوة التفاسير... وغيرها.

هذا وقد اجتهدت في صياغة بعض العبارات في بعض المواضع، حيث لم يكن لي بُدّ من عدم تجاهل ما خطر لي ـ بفضل الله تعالى ـ من فكرة فيها، وذلك بعد التمحيص والتدقيق مع الكتاب والسنة؛ حذراً من الوقوع في الخطأ. ومع هذا فإني أقول: كتبت ما كتبته مما جمعته من بطون هذه الكتب والتفاسير ما كتبت وجمعت، واجتهدت في بعض الأحيان ما اجتهدت، فما كان من صواب فمن الله، وما كان من خطأ فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله إنه هو الغفور الرحيم.

ب ـ إن العبارات الجانبية الأخرى المضافة على الحواشي هي إما أن تكون:

أولاً: عبارات مجملة للدروس والأشواط والمقاطع والقطاعات. وهي عبارات عامة وضعت لزيادة إيضاح فكرة هذه الدروس والأشواط. ولم نذكر هذه العبارات في جميع السور، وإنما اكتفينا بالإشارة إلى عناوين هذه الدروس والأشواط، وذلك لصعوبة إجمال موضوعاتها الواسعة وتلخيصها في جمل قصيرة من ناحية، ومن ناحية أخرى لكون العبارات الجانبية للفقرات قد حلت محلها بشكل أو بآخر، لذلك اكتفينا بها. وقد جعلنا موضعها من ناحية الجهة اليمنى للصفحات، وظللناها بلون زهري لغرض تمييزها.

ثانياً: عبارات أخرى لزيادة إيضاح وجهة ترابط فقرات الآيات. ومثل هذه العبارات بدأناها بـ: وبعبارة أخرى، أو: ومن ناحية أخرى، أو: وكذلك ترتبط هذه الآية بما قبلها من ناحية، وما إلى ذلك، وجعلنا موضعها غالباً من ناحية الجهة اليسرى للصفحات، وأحياناً أدخلناها في مجال عبارات الفقرات عند ضيق المجال المخصص لها. ولم نظللها، وإنما حددناها بإطار خطي فقط.

ثالثاً: عبارات مضافة لبيان بعض التعليقات والملاحظات المفيدة، ومثل هذه العبارات بدأناها بـ: ملاحظة، تعليق، توضيح، أو بيناها مباشرةً. وجعلنا موضعها ـ على الأغلب ـ من ناحية الجهة اليسرى للصفحات، وظللناها بلون رمادي فاتح لغرض تمييزها.

٣ ـ إن الأرقام المظللة التي تقابل فقرات الآيات وتجاور العبارات الموضحة لها، هي أرقام تمثل أعداد الآيات في كل فقرة من تلك الفقرات.

٤ ـ إن الخطوط الأفقية هي وسيلة لبيان حدود الفقرات المتسلسلة عبر السورة الواحدة، وأما أطوالها وألوانها ـ وهي غالباً الأسود والرمادي ـ فهي وسيلة لبيان درجة الترابط: فالأسود مثلاً أقوى في الفصل بين فقرة وأخرى من الرمادي، وكذلك الأطول من الأقصر. وكما يلي:

أ ـ الخطوط سوداء اللون الطويلة الممتدة ـ التي تمر في مجال الدروس، ومجال الآيات، ومجال العبارات ـ تبين انتهاء درس، وبداية درس جديد.

ب ـ الخطوط سوداء اللون الطويلة العادية ـ التي تمر في مجال الآيات ومجال العبارات ـ تبين تفصيل فقرات الآيات عندما تتغير موضوعاتها تغيراً ملحوظاً؛ كانتهاء قصة مثلاً وبداية أخرى.

ت ـ الخطوط سوداء اللون الوسط ـ التي تمر في مجال الآيات فقط: تبين تفصيل فقرات الآيات عندما تتغير موضوعاتها تغيراً أقل درجة من السابق، وتستخدم مثلاً لبيان تفصيل موضوعات مختلفة تدور حول محور واحد لدرس واحد.

ث ـ الخطوط سوداء اللون القصيرة ـ التي لا يكتمل مرورها في مجال الآيات: تبين تفصيل فقرة تتكون مثلاً من آية عامة، تتبعها آيتان بمثابة تفريع عليها. أو بين آيتين الأولى تتناول موضوعاً معيناً، والثانية تتناول موضوعاً يتغير عن الموضوع الأول، إلا أنه يتبعه ويتصل به بمناسبة قوية.

ج ـ الخطوط رمادية اللون: تبين تفصيل فقرات الموضوع الواحد الذي يحتوي على تفصيل، أو لبيان تفصيل فقرات الآيات عندما تتحول موضوعاتها من موضوع إلى موضوع آخر قريب جداً من الموضوع الأول. وتستخدم غالباً في القصص، وأحياناً في آيات أخرى تقترب جداً من بعضها البعض في وحدة الموضوع.

ح ـ الخطوط رمادية اللون نصف القصيرة: تستعمل لبيان التفاصيل الموضوعية الدقيقة للموضوع الواحد.

٥ـ إن الأسهم المستخدمة غالباً هي على نوعين:

أـ أسهم صغيرة في نهايات الصفحات وبداياتها، داخل هامش الشرح الجانبي، بمحاذاة وبمستوى أرقام أعداد آيات الفقرات: تشير إلى أن لهذه الفقرات المجاورة بقية من الآيات في الصفحات التالية كما في الشكل: (في نهاية الصفحة ⬇) (في بداية الصفحة التالية ⬇).

ب ـ أسهم كبيرة في وسط هامش الشرح الجانبي، أسفل عبارات الفقرات، وأسفل عناوين الدروس والأشواط وعباراتها المجملة: تشير إلى امتداد المساحة التي تشملها مضامين تلك العبارات، كما في الشكل: ⇓

٦ـ إن الغاية الأساسية من تقسيم أو تفصيل السور ـ في هذا المصحف الموضوعي ـ وجعلها على شكل دروس أو أشواط أو قطاعات أو موجات أو مقاطع، وتفصيل الآيات، وجعلها على شكل مجموعات أو فقرات، بواسطة الخطوط الأفقية، والعبارات التوضيحية، هي:

أـ تكوين نظرة شمولية لدى الحافظ؛ تمكنه من احتواء الصفحات والسور والأجزاء، وبالتالي القرآن كله، إذا يسّر له الله سبحانه وتعالى.

ب ـ تسهيل حفظ فقرات الدرس الواحد ـ وهو الأشمل ـ وذلك من خلال فهم الفكرة العامة للدرس، أو من خلال فهم وجهة النظر المنطقية، والمناسبات الموضوعية، التي ينتقل السياق بها من فقرة إلى أخرى.

ت ـ تسهيل حفظ آيات الفقرة الواحدة ـ وهو الأخص ـ حيث إنها ستكون متماسكة أكثر في الذاكرة؛ لوجود روابط قريبة فيما بينها، هي روابط وحدة الموضوع الذي تدور حوله آيات كل فقرة، والذي توضحه العبارات الجانبية المقابلة لها.

ث ـ المساعدة على فهم الأسلوب الذي يعتمده السياق القرآني في تناول المواضيع المختلفة عبر كل سورة.

ج ـ تسهيل مراجعة السورة واستعادتها في الذاكرة؛ فإذا ما ترك الحافظ سورة ما أو بعض السورة، ثم عاد إليها بعد فترة، فإنه سوف يجد صعوبة بالغة في استعادتها؛ لأنه فقد أو نسي الملامح الرئيسة أو الخطوط العريضة التي بنى عليها هيكلية السورة في ذاكرته. أما في هذه الطريقة؛ فإنه سيجد خطوطاً وتقاسيمَ وعبارات، سيجدها بمثابة خطوط عريضة تساعده على استعادة السورة بمجرد مطابقتها مع ما تبقى منها في الذاكرة.

٧ـ إن من الوسائل المساعدة التي استعملناها في هذا المصحف، لتلافي مشكلة اللبس والخلط بين صفحات السورة الواحدة لدى الحفاظ ـ وخصوصاً في السور الطويلة ـ هي:

أ ـ ترقيم صفحات السور: فقد قمنا بإعطاء كل صفحتين متقابلتين مكتملتين في السورة الواحدة رقماً، وجعلنا لكل سورة ترقيماً خاصاً بها على عدد صفحاتها المتقابلة وبالتسلسل، ووضعنا هذه الأرقام في أعلى ووسط الصفحات وعلى شكل بطاقة رمادية في داخلها رقم، كما في هذا الشكل: ﴿١﴾ لاحظه في (ص٣ وص٤).

ب ـ تسمية صفحات السور: فقد قمنا بإعطاء كل صفحتين متقابلتين اسماً ـ وهو أول كلمة أو كلمتين تقريباً من إحدى الآيات البارزة في بداية الصفحة اليمنى، وقمنا بتظليلها لتمييزها، كما في هذا الشكل: وَبَشِّرِ لاحظه في (ص٥).

ملاحظة: في بدايات بعض السور ونهاياتها تنفرد الصفحات أحياناً؛ حيث تأخذ نهاية سورة ما صفحة، وبداية سورة بعدها صفحة أخرى، أو لا تكتمل الصفحتان المتقابلتان أحياناً أخرى. لذا لم نرقم في مثل هذه الحالة هذه الصفحات حتى لا يحدث عندنا إشكال، إلا إذا كانت الصفحتان

المتقابلتان للسورة من بدايتها أو نهايتها قريبتين جداً من الاكتمال. كذلك لم نشمل السور الأخيرة بترقيم الصفحات وتسمياتها، وذلك بدئاً من سورة الحجرات إلى نهاية المصحف؛ لأنها سور قصيرة نسبياً، ولا نحتاج فيها إلى مثل هذه العلامات، مثل ما نحتاجه في السور الأطول منها.

وأخيراً أسأل الله تعالى أن لا يؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا في بيان بعض مقاصده في هذا المصحف الموضوعي المفصل، وإن كان الغالب فيما ذكرناه فيه من شرح هذه المقاصد أو المعاني الجملية للآيات، منقول إما بالنص أو بالمثل، مما قاله علماؤنا الأجلّاء في تفاسيرهم؛ فبالتالي الكل يؤخذ منه ويرد عليه. وليس من مصدر مستيقن مستوثق بعد قول الله سبحانه وتعالى وقول رسوله ﷺ، لذا ليس بوسعنا ونحن نعمل في هذا المجال إلا أن نلتمس من الله تعالى عفوه وغفرانه، إنه هو العفو الغفور..